﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ [مريم: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

غـــرور الـكـافـر يطغيه؛ فيظنّ بـالـنّـاس نقصًا ليس فيه

هذه الآية تعجيبٌ مِنَ المُنكِرين جاءت بعد قيام الأدلّة على كمال قُدرةِ قائلِه سبحانَه وبراءتِه من صفات النّقص، وهي كأنَّها معطوفةٌ على قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّقَامًا﴾: (قوم) أصلٌ يدلّ على انتصاب وعزم[2]، والقيامُ على أضربٍ: قيامٌ بالشَّخص إمَّا بتسخيرٍ أو اختيارٍ، وقيامٌ للشّيء هو المُراعاةُ للشّيءِ والحفظُ له، وقيامٌ هو على العزم على الشّيء، والقيامُ والقِوامُ: اسمٌ لِما يقومُ به الشّيء؛ أي: يَثبُتُ، كالعماد والسِّناد لِما يُعمَدُ، ويُسنَدُ به، والمَقامُ يكون مصدرًا، واسمَ مكانِ القيام، وزَمانِه، نحو: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى﴾ [يونس: 71][3]، والمعنى: (خيرُ مَوضِعِ قيامٍ).

2) ﴿نَدِيًّا﴾: (النَّدْيُ) يدلّ على تجمّع، ويدلّ على بَلَلٍ في الشّيء[4]؛ و"النَّدِيُّ على فعيل: مَجلِسُ القوم ومُتحدَّثُهم، وكذلك النَّدْوَةُ والنَّادي والمُنتَدى، فإنْ تفرَّقَ القومُ فليس بنَديٍّ، ومنه سمّيت دار النَّدْوَةِ بمكّةَ الّتي بناها قصيٌّ؛ لأنَّهم كانوا يَنْدونَ فيها؛ أي: يجتمعون للمشاورة"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 553.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(3) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ندي).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (ندا).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شبهة أخرى من شبهات المشركين تُظهرُ عجزَهم وغيَّهم بحسن الحال في الدّنيا

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ مَوقِفَ أهل الكفر مِنَ الآيات إذا تُليت عليهم؛ لأغراضٍ منها: الاستدلال على صحَّة وقوع البعث؛ والمعنى: وإذا تُتلى على هؤلاء المُشركين المُنكِرين للبعث آياتُنا البيِّناتُ الواضحاتُ الدَّالّةُ على صحّة وقوع البعث والحساب يوم القيامة، قالَ الَّذين كَفَروا على سبيل العنادِ والتّعالي للَّذين آمَنوا باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر: انظروا ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؟[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بالواو في ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾:

مَوقِفُ الكفَّار من سماع القرآن هو الغفلة والاستهزاء

الواو هنا عاطفةٌ لِما بعدَها على آية ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾؛ لأنَّهما في حكاية ما يقولُه مُنكِرُ البعث، فبينهما التَّوسُّط بين الكمالين، وهي تشركُ إحدى الجملتين مع الأخرى في الإعراب والحُكم، وهي لمُطلَقِ الجمع على الصّحيح، ووردَت هذه الجملةُ "حكايةً لِما قالوا عند سماع الآياتِ النَّاعيَةِ عليهم فظاعَةَ حالِهم ووَخامَةَ مآلِهم"[2].

التّعبير بـ ﴿وَإِذَا﴾ ودلالته:

تحقُّقُ سماع المشركين للآيات النَّاعيَة عليهم

يَرِدُ التّعبيرُ بـ (إذا) الدَّالّة على تحقُّق وقوع الشّرط، وكونه مقطوعًا بوقوعه، فتكون في الأمر المَقطوعِ به، وتجيءُ (إذا) ظرفَ زمانٍ، وحقُّ زمانها أن يكون مُستقبلًا، وقد تُستعمَلُ للماضي مِنَ الزّمان، مثل: إذ، والمرادُ: حصولُ التّلاوة من أيّ تالٍ كان، فدلَّ مجيءُ (إذا) على تحقُّق هذه التّلاوة، وكونها أمرًا مقطوعًا بها.

دلالة التّعبير بـ﴿تُتْلَىٰ﴾:

التّعبيرُ بالمضارع للدّلالة على تجدُّد هذه التّلاوة واستمرارها مع

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 63.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 16/ 124.

استحضار الصّورة الماضية من أيّ تالٍ يتلوها، وحُذِفَ المسند إليه هنا إيجازًا واختصارًا؛ لكون التّلاوة لا تقع إلَّا من تالٍ لها، وأيضًا لكونه معلومًا للسَّامع والمُخاطَب أنَّ التّلاوةَ لا يقومُ بها إلَّا مَن يقع الوصفُ عليه بأنَّه تالٍ لهذه الآيات البيّنات.

تكرار تلاوة الآيات عليهم، وهم متكرِّرون في العناد والشّرك

إيثار التّعبير بالتّلاوة دون القراءة:

التّلاوة تعني: المتابعة اقتداءً ومَرتبةً، والتّلاوة تختصُّ باتِّباع كُتُب اللّه المنزَّلة تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتِسام لِما فيها من أمرٍ ونهي، وترغيبٍ وترهيب، أو ما يُتوهَّم فيه ذلك، وهو أخصُّ مِنَ القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، لا يُقالُ: تلَوتُ رِقعتَكَ، وإنَّما يُقالُ في القرآن في شيءٍ إذا قرأتَهُ وجَبَ عليك اتِّباعُهُ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ فهذا بالقراءة، والتِّلاوة والتَّلِيَّة: بقيَّةٌ ممَّا يُتلى؛ أي: يُتَتَبَّعُ، وأَتليتَهُ؛ أي: أبقيتُ منه تلاوةً؛ أي: تركتُهُ قادرًا على أن يَتلوَهُ[1]، فالتّعبيرُ بالتّلاوة يفيد أنّ الآياتِ كانت تُتلى عليهم؛ لغرض اتِّباعهم إيَّاها، وأنَّ فيها ما يدعوهم إلى هذا الاتِّباع.

الكافرون تقلَّبوا في السَّماع بين أمرٍ ونهي، وترغيبٍ وترهيبٍ، ولكن لا مَجيبَ

نكتة تعدي الفعل ﴿تُتْلَىٰ﴾ بـ (على):

وردَ الفعلُ متعدّيًا بحرف الاستعلاء (على) القائم مَقامَ (في)، فاستُعيرت من معناها الحقيقيّ؛ وهو الاستعلاء، كأنَّ هذه الآيات قد علتهم لوضوحها وظهورها؛ والمعنى: وإذا تُلِيَت فيهم الآياتُ، والاستعارة من قبيل الاستعارة التّبعيّة في الحرف، فمعاني الآيات تحيطُ بهم، وتخاطبُ فيهم النّفسَ والعقلَ والقلبَ والرّوحَ، وتقلِّبُ لهم الأدلّةَ، وتُصرِّفُ لهم المعاني؛ فقد أظلَّتهم؛ ولهذا عُبِّر بالتّلاوة دون القراءة، فبينه وبين التّعبير بـ (على) مِنَ التّناغي ما ترى.

هناك يومٌ سيندمون فيه على عدم إجابتهم وتصديقهم

سرُّ إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أُضيفَتِ الآياتُ إلى

(1) الرَّاغب، المفردات: (تلى).

ضمير العظمة الرَّبَّانيّة إلى الله تعالى تشريفًا وتعظيمًا للمضاف، مع ما أفادته الإضافة مِنَ الإيجاز الدَّالِّ على المراد، وفيها أنَّ عظمةَ ذي الجلال والإكرام جليّةٌ في هاتيك الآيات، تعرِّفُهم بالله ربّهم، وتطلبُ منهم اتِّباعَه؛ ولهذا عُبِّر بالتّلاوة دون القراءة أيضًا.

كفى بكون الآيات من عند ربِّ الأرض والسّماوات؛ للتّصديق بها، والعمل بمقتضاها

سرُّ التّقييد بالحال في ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ جمعًا:

حالٌ مُؤكِّدةٌ أو كاشفةٌ، والمراد: آياتٌ واضحاتٌ أو مرتَّلاتٌ أو ظاهراتُ الإعجاز، قال البقاعيّ: "لا مِريَةَ فيها، بأن تكون مُحكَماتٍ، أو مُتشابِهاتٍ قد تَبِعَها البيانُ بالمُحكَمات، أو ببيان النّبيّ ﷺ، فهي حالٌ مُؤكِّدةٌ أو كاشفةٌ"[1]، و"المُرادُ بالآياتِ البَيِّناتِ: آياتُ القُرآن، ومعنى كَونِها بيِّناتٍ: أنَّها واضِحاتُ الحُجَّةِ عليهم ومُفعَمَةٌ بالأدلَّةِ المُقنِعَةِ"[2]، وورد التَّعبير بالجمع ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ ليُناسبَ الجمع في ﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ لتعظيم أمر هذه الآيات ولبيان فخامتها، وفي الجمع تنبيهٌ على حصول الوصف ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ بقوَّةٍ في كلِّ آيةٍ؛ إحسانًا إليهم وإلى المعنى القرآنيّ، فلا حجَّةَ لهم ولا عذرَ في المُخالَفة بعد ذلك، ولو عُبِّر بالمفرد؛ لربَّما أوهمَ أنَّ الوصفَ للبعض دون الجميع، أو أنَّ الوصفَ للجميع، ولكن على جهةٍ ضعيفةٍ.

الآيات واضحات ومرتَّلات وظاهرات الإعجاز

الغرض مِنَ التَّعبير بالاسم الموصول ماضيًا:

التّعبير بصلة الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فعلًا ماضيًا لتحقُّقِ الكفر منهم وحصوله، فصار صفةً واقِعةً لهم، فكان أقوى في تأدية المراد مِنَ الجملة الاسميّة، وفي ذكر الفاعل موصولًا بهذه الصِّلة تقريرٌ لهذا الغرض، ولو قيل بدلًا منها: قال أميَّة بن خلف أو غيره، ما دلَّ على شيءٍ من ذلك إلَّا بقرائنَ أخرى.

الآيات البيِّنات الواضحات بيَّنت خطأهم، فلم يَعتبروا بها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 224.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 148.

دلالة اللّام في: ﴿لِلَّذِينَ﴾:

الكفرة في ظنِّهم أنَّهم أفضل مِنَ المؤمنين

يجوزُ أن تكون اللّامُ في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للتَّعليلِ؛ أي: قالوا لأجلِ الَّذينَ آمَنوا؛ أي: مِن أجلِ شأنِهم، فيَكونُ هذا قولَ المُشركينَ فيما بينَهُم، ويجوزُ كَونُها مُتَعَلِّقَةً بفِعلِ (قالَ) لِتَعديتِه إلى مُتعلَّقِه، فيَكونُ قَولُهم خِطابًا مِنهُم للمُؤمِنينَ[1].

الغرض مِنَ التّعبير بجملة ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾:

وَقَعَ مَقولُ القولِ جملةً استفهاميّةً حكايةً لمعنى سخرية الكافرين مِنَ المؤمنين، وفيه فضحٌ لهم، وبيانٌ لاستحقاقهم الجُثوَّ لظلمهم، تسجيلًا لفضائح الكافرين بيان لاستحقاقهم الجُثوَّ في النَّار.

الغرض مِنَ الاستفهام في قوله: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾:

الكافرون يقيسون أحوال الآخرة بمظاهر الدّنيا الفانية

الاستفهامُ هنا تقريريٌّ؛ والمعنى: أنَّهم يطلبون الإقرارَ بخيريّة أحد الفريقين، ويعتقدون أنَّهم خيرُ الفريقين، وأنَّ الجوابَ سيكون لصالحهم.

علَّة التّعبير بـ﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾:

طريق المؤمنين وطريق الكافرين مُفترِقان

اصطفى النّظمُ الكريمُ لفظَ الفريقين لبيان ادِّعاء الكافرين التَّساوي بينهم وبين المؤمنين؛ عنادًا وغرورًا لِما هُم فيه من رغد العيش، وحسن الحال، وخشونة العيش مِنَ المؤمنين الفقراء، وتمهيدًا لطلب الإقرار بالخيريّة؛ لِما بينهما من فرقٍ يَستوجبُ ذلك.

دلالة التّعبير بالتّفضيل في ﴿خَيْرٌ﴾:

لا خيريَّة في طريقٍ يقودُ إلى النَّار

قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ تفضيل ليس على بابه؛ لأنَّهم لا خيريَّة فيهم، والتّعبير به قصدًا إلى التَّهكُّم الَّذي هو أغيظ لأهل الإيمانِ من أن يُقالَ له: عقابُك النَّار، وفي الأسلوب معنى المبالغة مع الإيجاز، فالتّفضيل إمَّا للزّيادةِ المُطلَقةِ أو لزيادة الثّوابِ في بابه عنِ العقابِ في بابه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 148.

سرُّ التّقييد بالتّمييز في ﴿مَّقَامًا﴾:

المَقامُ الأسمى لِمَن آثر رضا مولاه ﷻ

﴿مَّقَامًا﴾ هنا منصوبةٌ على التَّمييز، وهو تمييزٌ مُحوَّلٌ عنِ المبتدأ؛ والمعنى: أيُّ الفريقين مَقامُهُ خيرٌ؟ والمعنى عليه: أيُّ الفريقين خيرٌ مكانًا ومَنزِلًا؟ وأصلُه مَوضِعُ القيام، ثمّ استُعمِلَ لمُطلَقِ المكان، واصطُفيَ المقامُ؛ لأنَّ مَقامَ الرّجلِ عنوانُه الكاشِفُ عن مكانته؛ فالمُقامُ هو المقصودُ بالخيريّة.

دلالة المجاز في قوله: ﴿مَّقَامًا﴾:

القياسُ الفاسِدُ المَشبوهُ سبيلٌ من سُبُل الشّيطان في تزيين الباطل

أُطلِقَ المَقامُ هنا مَجازًا على الحظِّ والرّفعة، فهو مَأخوذٌ مِنَ القيام المُستعمَلِ مَجازًا في الظّهور والقُدرة، واستُعير هنا استعارةً تبعيّةً تصريحيّةً، من باب استعارة اسم المكان للحظِّ والرّفعة، ثمّ اشتُقَّ منه المَقامُ بمعنى القيام مبالغةً في إظهار مكانتِهم ورفعة شأنِهم وكثرة حظوظِهم من نعيم الدّنيا وترفها، وهذا من منظورهم وقياسهم الفاسد المشبوه؛ ولهذا لم يقولوا: أيُّنا خير مقامًا؟ بل قالوا: أيُّ الفريقين خيرٌ مقامًا؟ لكمال الاعتداد بأنفسهم في مقابلة الجماعة المؤمنة.

دلالة العطف بالواو: ﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيًّا﴾:

ظنّوا أنَّ قلّةَ حظوظ المؤمنين مِنَ الدّنيا بسبب غضب الله عليهم

عُطِفَت هذه الجملةُ على سابقتها إتمامًا للتّفضيل بين المَنزِلتَين، والواو هنا لتشريك الجملة الثّانية في الحُكم والإعراب مع الجملة الأولى، والجمع بينهما في أداء المعنى المراد، فبعد أن ذكروا خيريَّة المَقام رجعوا، فذكروا حُسنَ المجتمع والمَجلِس، فأرادوا إتمامَ خيريّة مَنازلِهم وحُسن مَجالسِهم، وقد أرادوا بذلك التَّهكُّمَ بهؤلاء المؤمنين الفقراء من وجهة نظرهم القاصرة.

دلالة التّعبير بالتّفضيل بـ ﴿وَأَحۡسَنُ﴾:

التّفضيلُ بـ ﴿وَأَحۡسَنُ﴾ هنا واردٌ في مَقام التَّهكُّم بهؤلاء المؤمنين، والأصلُ في التّفضيل الأفضليَّةُ على ما أُضيفَ إليه، فكأنَّهم أرادوا

أنَّ مَجلِسَهم أحسنُ من مَجلِس المؤمنين كما ذكروا - سابقًا - أنَّ مَقامَهم خيرٌ من مَقامِ المؤمنين، وإذا ذُكِرَ بعد أفعل التّفضيل جنسُهُ أو واحدٌ من جنسِه وجبَ إضافتُهُ إليه، وإذا ذُكِرَ بعد ما هو من مُتعلِّقاته؛ وجبَ نصبُهُ على التّمييز.

نبرةُ الخطاب لدى الكافرين هي نبرةُ التَّهكُّم، والتّعالي، والغرور

سرُّ التّقييد بـ﴿نَدِيًّا﴾:

﴿نَدِيًّا﴾ هنا منصوبةٌ على التّمييز من أفعل التّفضيل ﴿أَحْسَنُ﴾، وهو مُحوَّلٌ عنِ المبتدأ، فهو المقصود بالحُسْنِ؛ نفيًا للتّسوية بينهما فيه مِن جهة الحُسن، والتّعبيرُ به هنا من قبيل المجاز المُرسَلِ، والمرادُ بالنّديّ جلساؤه، فهو من قبيل إطلاق المحلِّ وإرادة الحالِّ فيه، يريدون أنَّ خيريَّتهم حالًا، وأحسنيَّتهم مآلًا ممَّا لا يقبلُ الإنكارَ.

الشّيطانُ زيَّن للكافرين أنَّ خيريَّتهم حالًا، وأحسنيَّتهم مآلًا ممَّا لا يَقبَلُ الإنكار

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»